مأساة شعرية ذات فصلين

جائزة « الجامعة الادبية » للسنة ١٩٣٥

بقلم سعيد عقل

تمهيد

وصلنا الادب العربي ، وهو يجهل « الانواع الادبية » ، حتى الاولية منها كالملحمة . وكان على نهضتنا الحديثة ان تحاول جهدها مجاراة آداب الامم في هذا المضمار .

اترك الملحمة لظرف آخر ، واكتفي الان بدرس المرسح .

***

اني ، بكثير من الجرأة ، أشيح ناظري عما وسموه عندنا بسمة المرسح ، فأبدأ بعرض عام ادرس فيه انواع المرسح عند الامم الراقية .

ثلاثة مراسح في الآداب العالمية لم تُخلق : اليوناني ، والاتباعي المدرسي في القرن السابع عشر ، والشكسبيري .

المدرسي الفرنسي صورة اروع للمرسح اليوناني ، فاترك سوفوكل وأوريبد الى راسين وكورنيل . فيبقى لديّ مرسحان لنوعين مختلفين : الشكسبيري والمدرسي . على ان هذا الاخير نفسه ، منقسم الى نوعين مع راسين ، وكورنيل . طريقة راسين تقضي بوصف « العارض في اشد حالاته » ، فاذا المأساة عاصفة هبت من زمن تنفجر على المرسح فلا يمكنها ، والحالة هذه ، ان تطول او

تجري في اماكن مختلفة فتتوافر وحدتا الزمان والمكان. وطريقة كورنيل تتابع وصف العارض من نشوئه الى حدّته الى انحلاله. خذ له « السيد » مثلاً، فترى ان العارض لا يبدأ الا بعد صفعة « الكونت »، اذ يقف « رودريك » حائرًا: ايترك والده سليب الشرف، ام يقتل والد « شيمين »، والد حبيبته؟ فلو تناول راسين « السيد » هذه، لبدأ الرواية من هنا. ومن البديهي ان تكون طريقة راسين الطريقة الاكمل لبساطتها ولاكتفائها بأخذ البعض من حالات النفس ترسل عليه النور، فتبدو النفس وعواطفها بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسيني النوع الذي اقصده من المرسح المدرسي.

اما المرسح المنتسب لشكسبير فالثابت ان صاحبه لم يكن متضلعاً من اللاتينية واليونانية فيأخذ بمرسحهما ويرقيه، كما فعل راسين، فنشأ مرسحه من نوع الادب الاولي، اي « الملحمي ». فكما ترى في « الالياذة » مثلاً، عصور اليونان الاولى، تتهادى امامك حيّة أخلاقاً وعادات، هكذا ترى في « روميو وجوليت » وفي « هملت »، عصرين: ايطاليًا وداغركيًا، يحفقان باخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

ظلّ البحث قائماً على راسين وشكسبير، فأيّ النوعين تعتمد في نهضتنا، وقد ثبت لنا انهما مختلفان؟

الاول يدرس « عارضاً » واحدًا، ويدرسه بكثير من التعمق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة الا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك. والثاني يصف لك « عوارض » عدة وجماعة كاملة. واذا حالت وفرة اشخاصه دون التعمق في درس كل نفس، فتعاض انت بانّ امام عينيك عصرًا كاملاً او بشرية باسرها، ولو باهتة الالوان.

الاول — وهو درس — يقتضي له، على قولهم، انشاء وضعي رصين، يسيّره المنطق، أداة الدرس الاولى، فيخلو من المقاطع الغنائية او الملحمية. والثاني — وهو تصوير عصر او بشرية — يستدعي الانشاء الغنائي والملحمي لغة البشرية في كل آن.

لا يجوز لنا الاخذ باحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً، الا اذا وافق

اميـال بيننا وذوقنا الحديث. فما هي اذواقنا وما هي اميالنا ؟ وهل نستسيغ راسين بإجماعه ، او شكسبير بإجماعه ؟

ان هوغو ، قد اخفق مرسحه ، يوم اراد ان يحذو فيه حذو شكسبير ، فهل يعني ذلك انّ المرسح الشكسبيري لا يوافق غير الانكليز ولا يلائم العصور الحديثة ؟ وانه لا يستند في البقاء الا على « العتق » ، كأدبنا العربي الهزيل ؟ وانه لذلك خليق بالاهمال ؟ لا ؛ والتشبيه الذي جئت به بعيدٌ بعد شوقي عن راسين . . . فانا لمرسح شكسبير مزايا مرسحية حقًا تفيدنا نحن الشرقيين على الاخص . فهو نوع أمثل « للمرسح الشعبي » (mélodrame) ، الذي نجح عندنا في « عاصفة في بيت » و « الذبائح » و « العواصف » لانطون يزبك . ومن جهة أخرى ارى ان حالتنا — تلامذة العرب — غير حالة مشاهدي هوغو في فرنسة . هؤلاء اعتادوا مع راسين وكورنيل مرسحًا منطقيًا يكاد يخلو من الغنائيات ، فلولا بعض مقاطع من مثل « مونولوج رودريك » و « اغاني استير » ، لرأينا المرسح المدرسي الفرنسي خاليًا من الوتيرة الغنائية . وجاء هوغو فقدم لهم فجأة نوعًا مماكسًا تمامًا . اما نحن — تلامذة العرب — فوقفنا من هوغو ، التلميذ الصغير لشكسبير ، غير موقف الافرنسيين ، وقد اعتدنا ان نرى شاعرًا يسمعنا من على المنبر مائة بيت كلها من النوع الغنائي ، اعتدنا ان نقرأ من الغنائيات حتى الاهاجي والمدائح ، وقل اخيرًا اعتدنا ادبًا كاملًا يكاد لا يعرف الا النوع الغنائي . الافرنسيون أتوا ، في الطريقة المدرسية ، التنظيم ، والبساطة ، والوضوح . ونحن ألفنا « الفوضى الفخمة » والتعرّض « للماحيات الناقصة » من مثل ادب هوغو ، واني على مثل اليقين من ان صاحب « البورگراف » لا يخفق على مرسحنا إخفاقه في باريس .

فنحن بالتالي ، إزاء مرسح شكسبير الغنائي الملحمي ، نحسّ اننا في قلب ادبنا العربي المدرسي الذي لا يمكننا ان نخلعه بالكلية .

اما راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقّف على الادب الاوربي ، يغرينا بوحدة العارض التي تمكنه من درس النفس البشرية ، الامر الذي نلتفت اليه بظمإ في كتاباتنا الحديثة ، ويغرينا اخيرًا بطريقة تحليل — وهي وحدة ومنطق —

على الذوق ، عدوّ الغموض والفوضى .

فأرى لزاماً ، والحالة هذه ، ان نلتفت بآن واحد الى صاحب «اندروماك» ، وصاحب « هملت ».

***

وبعد فقد تأثرت ، في « بنت يفتاح » ، بطريقة راسين . فأخذت « عارضاً» ووصفته في « حالة اشتداده » فانقادت لي الوحدات الثلاث ؛ كما اني سايرت الميل العربي الى الغنائيات والملحميات فكنت كشكسبير غنائياً ملحمياً ، ولكن الى حدّ ، بحيث لا اسقط من المبالغات حيث سقط هوغو .

وفي وصف النفس البشرية رأيت ان المحدثين من مثل راسين وكورنيل لم يكتفوا بتصوير دقائق العاطفة الواحدة ، والعراك بين الاشخاص المختلفين ، بل صوّروا العواطف المتضادّة في النفس الواحدة ، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسية » او « فاجعة الضمير » . وهذه ميزة للادب الحديث على الادب اليوناني ، فلم امرّ بها دون نظرة جدية .

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً » . فقد ذهب جول لمتر الى ان المرسح هو هذا « القلق » الذي يثير قلوب المشاهدين ، اذ يتوقعون اصطدام خُلق بخلق مُضاد . فتخلو الرواية من المفاجئات على المشاهدين ، بحيث يتعرّفون الموضوع كله منذ البدء إما لشهرته وإما لاتقان « العرض » القصير ، فلا يتساءلون بعدُ : « ما هو سرّ العراك النفسي ؟ » لانهم يعرفونه ، بل يتساءلون : « كيف يتعرّف اشخاص الرواية الى هذا السرّ ، وكيف يتحاورن خطبَه ؟ ». اجل ان هذا « القلق » هو المرسح ، كل المرسح ، وقد تجلّى في الآداب العالمية في مأساة خالدة : « اوديب الملك » لسوفوكل .

***

اما اني كنت في إنشائي على طريقتي المعروفة ، التي تصف العواطف بالصور او على الاصح بالايحاء ، فأمر ما انا بالنادم عليه آتي به في المأساة . وقد آن للمتأدّبين ان يفهموا أصول المرسح ومقتضيات انواع المرسح . فالمأساة غير «التطعة» المرسحية ، وغير « المهزلة » ، وغير « المرسح الشعبي » . المأساة مفترض فيها « جلال

الحزن ، وان ترفعك بايهامها الى مثل الحلم » ، فتنفلت انت — وهذا شرط الفن — من الحقيقة الوضعية . ولهذا اوجبوا فيها الشعر دون سواها . فهي ، دون بقية الانواع المرسحية ، لا تحاكي الحياة العادية . والا كان عليهم ان يحظروا الشعر فيها ، حتى العادي منه ، لانه ليس في حياة العامة . قلت ان انشاء المأساة يجب ان يكون على روعة الإبهام ، يحاول ان يظهر العاطفة بالصور او يوحيها ايحاء . واني مُقدّم نظرية عملية جدّ عميقة ، للسيدة ده ستال ، قالت : « اذا حرّكت النفس عاطفة قوية ، فالمرء العادي نفسه يلجأ الى الصور والاستعارات . هو يستعين بالطبيعة الخارجية ليعبّر من نفسه عما لا يُعبَّر عنه » . وهل المرسح غير تعبير عن « عواطف قوية » ؟

***

مفترضٌ في « المأساة » ان يكون موضوعها عريقاً في القدم ، يعطيه غبار السنين جلالًا . فأخذتُ موضوعي من « العهد القديم » ، واستخدمته للتعبير عن عواطف بلادي وامانيها .

اما اشخاصي فقد جعلتها أميل الى اشخاص كورنيل . ذلك ان الروائي الذي « صوّر الانسان كما يجب ان يكون » تظلُّ طريقته اجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها ، ان توفّر المُثُل العليا . واني لاجدها جريمة كبيرة ان يبدأ المرسح عندنا بوصف نفوس هذا العصر كما هي . ففي مثل هذا الوصف قطع رجاء ، وقنوط من حياة شعبٍ يأمل أحراره منه ان يلتفت الى الشمس .

***

اعطاني « سفر القضاة » من « العهد القديم » — وقل التاريخ — ان يفتاح رجلُ بطش ولدته لجلعادَ امرأة بغيّ . فاذا كبر اخوته ، انكروا عليه الأخوّة وطردوه . ولا يذكرونه الا متى اجتاحهم « بنو عمون » واستبوهم . ومقابل محاربة يفتاح للعدوّ يُقرّ له اهله بحقوقه وبالسيادة عليهم . وينتصر يفتاح . لكنه يكون قد نذر قربان الظفر اول بكر تخرج للقائه . فيتفق ان تكون الاولى بنته الوحيدة . ويعطيها شهرين تبكي بكوريتها على جبل جلعاد ثم ينفّذ فيها

النذر. ويصير رسماً عند اسرائيل ان تقوم العذارى في كل سنة الى جبل جلعاد يتفجعن على بنت يفتاح.

وهكذا خلقت الرواية :

افترضت ان يفتاح على اثر طرده استبدل اسمه بجلعاد ، وكتم بنته الامر، فربّاها لا تعرف في والدهـا ـــ جلعاد ـــ الا رجل اصل واعمال كبار ، كما ربّاها على كره يفتاح، فاذا اجتمعت باتراب لها من اسرائيل يحتقرنه ، ويحتقرنَ ذكره ، لم تتوانَ عن مشاركتهن هـذا الاحتقار . وبدأت المأساة عند تردّد يفتاح لدخول الحرب: ايترك بلاده للعدوّ سبية؟ ام يدخل المعركة فيشتهر اسمه وينتضح أمرُه عند بنته ؟ فكانت روح الرواية في « قلق » المشاهدين على بنت يفتاح « الابية » اذا عرفت سرّ ابيها « الوضيع » ، وعلى يفتاح « المتكتم » اذا « افتضح » امره عندها.

بنت يفتاح *

الأشخاص

يفتاح
راحيل : بنت يفتاح
المجنونة : امّ يفتاح ، عاهرة من جلعاد
تامار : خدنة راحيل

يمثل المربع تلّة من « طوب » ، قرب « جلعاد »

الفصل الاول

الحريّة

برحٌ على النور الهوانُ ،
ومـآتمٌ معـه الجنانُ ؛
وبـأضلع الاحرار « آبادٌ »
صغيراتٌ » حسانُ ،
إن يستبدَّ بها الزمـانُ ،
يُغنِ ثورتها الزمـانُ .
لي ، مثـل غـيري بالدُّلى
المثناف ، مرعى وافتنانُ ؛
انا لا اذلّ ، وفي جبين
الشمس يبدو لي مكانُ !

* الحقوق محفوظة ؛ والنقل محظور ، ولو مقاطع .

الفصل الاول

مضرب إلى اليمين ؛ عرقة متداعية الى اليسار ، يظلّهما شجر جبلي . الليل في السحر يتنازع ثبتاً فثبتاً .

المشهد الاول

يفتاح ثم المجنونة

يفتاح

أيُّ تيهٍ ، يا ربِّ ، أيُّ مقاديرَ تقاذفنَ عزّتي وقيادي ؟
أنا في حيرة ، أعادن دهري ، واهزّ الآلامَ مل» فؤادي ،
انكرتني عشيرتي ، ورمتني هائماً في قفار «طربَ» الجهم ،
فرعُ مجدٍ ، مدرّبٌ في المنالي ، كنت دنيا ، لولا مذلّةُ أمي .
انكرتني «جلعادُ» عزي ، فلا تذكر بطشي ، لولا العدوُّ الثاني ،
أتُراني مجيرها من عداها ، وانا الثأرُ بين ظفر وناب ؟
انا سرٌّ كتمتُهُ عن كياني ، عن أحبِّ البنين ، عن راحيلا ،
إن أجب داعي الوغى يَشعِ اسمي عند بنتي ، فالتقيا ذليلا ،
وإخال الاسباط تهتف باسمي في غدٍ ، وابنتي تُصمُّ المسامع .
قذفتني الاقدارُ دُميةَ لاهٍ فأنا حائرُ الأمانيِّ ، ضائع
بين أمّ مجنونةٍ تملأ اليد صراخاً ، وتملأ الامس عارا ،
وابنةِ صُنعِ ما أريد ، تردّت بغض يفتاح ، في الحياة ، شعارا ،
ذكرهُ عندها جراحٌ على القول ، وتجديفةٌ على وجه قدسٍ ،
ومرورُ اسمهِ على شفتيها غيمةٌ من أسًى على جوِّ عرسٍ !

يلتفت فجأة فيرى الله بشعر كث ، وجنون ناتئة ، واثواب ممزقة

أمرْ !

المجنونة

يفتاح .

يفتاح

لا أنا لست يفتاح . انا لابنتي علاء ونور !
أنا . . .

المجنونة

يفتاحُ .

يفتاح

لا تعيدي على اسماعيَ اسمي ، فكل ما بي يثورُ .

المجنونة

ابن راحيل ؟ انت تمنعني عنها ؟ ولا كتم بعدُ لا استارا ؛
كبرت ، فالسؤال ينشقّ عن فيها ، وتبدو الدنيا لها أسرارا .
شئتَ أم لا ، أنت ابن فاجرة !

يفتاح

امي ، حنانيك ! أقصري في المقال !
انا أدرى ، الى الصميم ، إلى إخفاء حالي عني ، وانكار حالي .

المجنونة

يشتدّ عليها المارض فتقوم بشق الايماءات إلى الفضاء البعيد

عبثاً تصعد التلالَ المنيفات ، وتجري تهرّباً في الفضاء !
أتعدُّ السقوط من علُ ، يا يفتاح ، من مرتقى ظنون الرائي؟!

يفتاح

عاودتها روّى الجنون .

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسحَ وجه الاوضاع بالأوهام ؟

عوّدِ البنتَ رؤيــةَ الحاضرِ القفر ، فلا تشرق الشمس الدوامي .

يفتاح

باشتياق

لو تعي قولهــا ، وتعرف راحيل ، وجوًا عاشت به راحيلُ !

بترفق

طفــلةٌ من تبتسم الصبح في الرونق ، مــالت على العُلى وتميلُ .
مثلُ ابكار ربعها ، تعشق المجــد ، وتزهو بالمحتــد المعبودِ ،
تلتقي ، في الربيع ، بعضَ سجاياها ، وفي الانبياء بعضَ الجدود .

بحسرة

انا ربّيتُهــا على كره يفتاح ، وقاستهــا مــرّة إسـي ،
فأنا ، عندها ، ابن اكرم بيتٍ ، باسم « جلعادَ » ، وابن أشرف أمّ !
اتراني أُوحي لهــا سرَّ فرعٍ لطختــه أمي بثوب العــار ؟!

المجنونة

ترى راحيل فتتهد اليها

هي راحيــل في الخميلة . . .

يفتاح

يمنعها بشدة

خلّيها شعاعاً في جبرة الأزهــار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤية حبيبتها

الضيــاء الضيــاء من ترهــاتٍ نسجتهــا أنامــلُ الانســان ؛
وغدُ البكر ليــلةٌ وفرة الرجس ، وجوٌ مخضّبٌ بالهوان ،
كذبٌ طهرها ! . . .

يفتاح

متمنعاً لاهانة بنته

أناتُك ، أمي !

المجنونة

كذبٌ مثــل محتــدٍ بــرّاق .

يفتاح

انت تضين محتدي ؟ وهو معنى فيه ، لولاك ، روعة الاشراق .
ولو انشقت الظواهر عني ، لقراءى دمانٍ طيَّ جَنانيَ !
ولو البرُّ بالأمومةِ يرضى ، لابرى واحدٌ لحرب الثاني .

وكأنه قد ندم على اهانة امه

عفوَ أمي ، إن ابرزْ اليومَ بالقول !

المجنونة

وفي برأة الذليل اتضاعُ !

يفتاح

بتكبر وثورة

ما أنا بالذليل !

المجنونة

ما أنت يفتاح ؟ !

يفتاح

بتدمر وتحسر

بلى ! لو تميد تحتي البقاعُ !
مُرَّةٌ في فمي الحياةُ ، ودكناء المرامي في ناظري المكلوم ،
وتكاد الشموس تظلم في وجهي ، ويبكي معي بياض الغيوم !

المجنونة

أبياضٌ في وجهه نذل شريدٍ خلَّفته جلمادُ إلف الذراري؟!

يفتاح

مهلَ أمي ! قربَ ضارٍ من الوحش عليه بعضُ النفوس الكبارِ !

المجنونة

إخفضِ الرأس .

يفتاح

في انكسار جبيني غضبةٌ للعلى ووجه الخيال ؛

إن ورثتُ الدم الأذلّ ، فنفسي ، في ضلوعي ، على جبينٍ عالٍ !

المجنونة

خلِّ عنك الإباءَ .

يفتاح

مشيرًا إلى وجه أمه

لا ، واعتزازي في ابائي لقاءَ وجهٍ أغرًّا ،
انت امي ، وانت سرُّ عذابي ، فدعيني ابثك الحبَّ مُرًّا .

المجنونة

حبك الذل ؟ !

يفتاح

لا ، وفيه جلالُ .

المجنونة

هو ذلٌّ !

يفتاح

بتنادٍ صبر

ذلٌّ ، إذا يلقاكِ !

وكأنه ندم على كلمته

أنا اهواكِ ، كيف كنتِ .

المجنونة

وقد تقدم يفتاح يريد تقبيل يدها

تراجع !

يفتاح

انا اهواك .

المجنونة

عُدْ

يفتاح

يكون قد ارتمى دونها ، يرغمها على التراجع

أنا اهواكِ !

فاذهبي.

المجنونة

غاضبة لطردها

انتَ ؟ أنتَ يفتاحُ ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريد الركبان من كل ظعن؟!
ثمر العار! ولد فاجرة حمراء! وُلدي انا! وتبرأ مني؟!

يفتاح

ايها الخفنة الحقيرة من نثر الضحايا، ومن رفات الجريمة، لا، وراحيل، ما تبرّأتُ من وجهٍ تهادى عليه طيفُ الأمومة.

المشهد الثاني

يفتاح وحده

ربِّ يكفيك ذلتي في حياةٍ وَفْرة الصبر، وَفْرة الآلام، أترى يطلع الصباح، ويفنى اليومُ في سرحة الزمان الدامي؟

يلتفت الى حيث مضت امه

ذهبت تنشر الصراخ وجيعاً، وإخال احتضاره في ضلوعي، ويكاد البعاد يحجبها عني، وتبقى براقةً في دموعي؛ تركتني إلف التأمل في حالي، وفي طالعي الوجيع القروح، ورمتني سحابةً في فضاء التيه، الموبةً بكفّ الريح. رأيُ مجنونةٍ لها! أم كلام الوحي ألقاه في لمياها الله؟ وإلى مَ الكتمان في أمر سرٍ بدأت تلتقي عليه الشفاهُ؟

حيرةٌ مرّة تهـدّم نفسي ، وتريني الحيـاةَ حرْبَ الكلام
أيُّ هولٍ غـداةَ تعرف راحيـلُ ، وأيُّ ارتعاشةٍ في صميمي !
بين خطبينِ صارخين بصدري : ذلُّ أهلي ، وجرحُ آمالِ بنتي ،
كيف أحيا ، وكيف أسحب رجليّ على الأرض ، وهي تنهار تحتي؟!

مستقرّ الراي

أنا أمضي لمصرعي ، في وغى الأحرار ، أقضي حقَّ الأُباة العوادي ،
إن يَفتني الفرع للهلّل كبرًا ، لا يفتني الردى فداء بلادي .
فتراني راحيلُ في النصر ، أو في الموت ، أسمى مني ، ولم أمحُ ذلي ؛
وإذا يذكرون ذلي لـديها ، تلتقيهم برايـةٍ أو بنصل !

يتنازل درعه عن المعركة

المشهد الثالث

يفتاح ، راحيل

راحيل

فرحة ، تحمل طاقة من الزهر

أإلى الحرب ، يا أبي ؟

يفتاح

وإلى النصر .

راحيل

هنيئاً لنـا افتداء الـديار !
انا أهواك ، يا أبي ، قبـلة النـاس ، عقيـد الفوارس الأحرار .
انا اهواك ، حامـلَ الراي سمحـاء ، ومستقبل الطعان سخيًّا ،
بين لمع الحراب ، بين المواضي ، يخفق النصر من حواليك حيًّا .
تخلع المجدَ والهنـاء على جلعـادَ ، فجرًا مجرّر الارديانِ ،
فيقولون في لقائـك : « حرّ » ويقولون : « بنتُهُ » ، وكفاني !

بفتاح

تعشقين العُلى .

راحيل

واعشقه في والدٍ ، مطلع العُلى من ظبـاهُ ،
فهو معطيَّ رفرفاتي إلى المجـد ، ومغنيَّ عن على في سواه .

تبدأ الفاجعة النفسية تتراءى على وجه بفتاح ويتشابه ذلك في كل من المشاهد التي تقوم على بفتاح وبنتو .

عجبٌ ما لوجهك أصفرَّ وأنهدَّ رواء ؟

بفتاح

راحيـلُ ، خلي المفـاخر .

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن . . .

بفتاح

كباقي الخلق .

راحيل

لا لا ، ونحن أسمى منـاثر ؛
نحن فرع الامجاد . ليس « شكيمٌ » في ذوينا ، وليس « بفتاحُ » . . .

بفتاح

يكفي !
لا تزيدي ، راحيل ، لا تتجنَّي !

راحيل

متعجبة

أيَّ ذنبٍ اتيتُهُ ؟ أيَّ خسفٍ ؟
انا عرضتُ ، عن قِلىً ، بالذليلَين : شكيمٍ ، وتربـهِ بفتاحـا :
مائتٍ ، ذكرُهُ ظلامٌ ؛ وحيٍّ ، يجرح الخاطرَ اسمُهُ والصباحـا .

بفتاح

لا تضلّي ، راحيل ، في كفِّ بفتـاح أماني الاحرار من جلعـادا .

بطلٌ لا يَخِبُّ في سرحة المجد سواه ، إذا الفخار تنادى .
فاذكري الحربَ ، واذكري الذلّ ، يا راحيل ، « عتون » في حمانا يجورُ ،
داسنا : فالربوع فقرٌ ، وأهلوها جباهٌ زلمى له وظهورُ .
لا وليٌّ يقودنا . . .

راحيل

لا وليٌّ ؟ !

يفتاح

غير يفتاح .

راحيل

والذليل ذليلُ !

يفتاح

اقصري في المقالِ ! إن يَشِرْ يفتاح إلى الحرب ، فاللهات صليلُ ،
والجباهُ الخنوعُ غضبةُ مجدٍ ، والبلادُ انتفاضةُ شتاء .

راحيل

بغضب

يا « جلعادَ » ! يلجأون إلى الذل ، فأين الأحرار ؟ ابن الاباء ؟

تشير إلى أبيها

ابن جلعادُ ، فارسُ الظفر الزاهي ، أبي ، أين سيفه المسلولُ ؟

يفتاح

كأنه يتحسر

لستُ في الحرب مثلَ يفتاحَ .

راحيل

ما قلتَ؟ وأمساً قامت اليك السهولُ
في رجالٍ براسلٍ مرّغوا الكبر اتضاعاً على تراب الدارِ ؛
بسة منك أرقصتهم فاجوا طرباً يلتقون لمع انتصارِ ،
هتفوا فيك للوليّ المفدّى ، والتقاك الشيوخ بالصولجان ،

وإذا ازورَّ عنهُ طرفُك ، مادت بهمِ الأرضُ في ثياب الهوانِ .
ثقةٌ فوقهـا التلفتُ لله ! فهـل نال مثلهـا يفتاح ؟

يفتاح

لا تقيسي إليـه أيَّ كميٍّ تخشع البيضُ دونه ، والرماحُ .

راحيل

انت تعلوه . أنت سيف صقيلٌ شقَّه الله مَشرقاً في البريّه ،
بطلٌ فيـك من يشرعَ مُعيد الشمس ، ليـلًا ، بضربةٍ علويّـه ،
تفتـل الزند من تجهّم لبنـان ، وتلهو بالموت حُنزُ بنانك ،
وتكاد الـذُرى تُحسُّ تهاديك ، ومرُّ المَدى صهيلَ حصانك ؛
انت تعلوه .

يفتاح

لا !

راحيل

بنفاد صبر

اما انت جلعاد ؟ !

يفتاح

بلى ، يا ابنتي ، ويفتاح دوني .

راحيل

أين منكَ الوضيعُ ؟

يفتاح

وحده

ربي ، كفاني !

راحيل

اين منك الثاوي على كل هون ؟ !

ذلّ يفتاح . . .

يفتاح

بسطوة وقد نفد صبره

هاتِ ، راحيلُ ، سيفي ، ونبالي ، والقوسَ .

تخرج راحيل

يا ويــلاهُ !
اي خطبٍ يدهاك ، ان يدُ أمري ، يا ملاكاً يفتاحُ كان اباهُ !
عُمُرٌ قــاتمٌ يمرُّ ولا ينشقّ ، دون انهياره ، عن هنــاء ،
فيذلَّ ابن آدمٍ بيديه ، لا بــذنب الأجــداد والآباء ؟!

يحس وحشة الانفراد

أين راحيلُ ؟ بتّ أخشى انفرادي ، وأرى في الفضاء مرَّ سوادِ ،
ثقلت أضلعي على قلبي الكاهل ، واهرورقت قوى أجلادي ،
ويكاد الجبان ينهار عني ، ويكاد الهواء يأبى نهوضي ،
ابن راحيلُ أرتمي في يديها ، وقعةَ النسر والجناحِ المبيضِ !

يستند تعبا الى المحرقة

راحيل

وقد عادت بالسلاح

والدي ، ما اعتراك ؟ رعشةُ خوفٍ وعلى كفّك انتصار الغداة ؟!

يفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا ، وعينيك ، لم أخفّ ! وسواد وقعُ دنيا ، عندي ، ورقعُ حصاةِ .
وإلى الملتقى .

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك ، والتفاتُ يهامك !
تفتدي روحك البلادَ ، إذا عزّت ، ولم يكفها افتداء حسامك .

المشهد الرابع

راحيل وحدها

كل شيء حولي تغيّر من عهدٍ ، فنفسي في حيرةٍ وظنونٍ ، وإذا التقي أبي فعلى حزنٍ ، وعهدي به ضحوك الجبينِ . أيَّ سرٍّ يحوطني بتقوطرٍ ، وانا بعدُ في ربيع الشباب؟! لم تمرَّ الأحلام في خاطري بعد ، ولم تحظَ في الدجى بجوابي . مَنعوني بالأمس مجنونةً مرّت تنادي باسمي ، وتطلب خدري ، ورموني في عزلةٍ أبعدُ الأفواه همساً ، والعينَ لفتة سرٍّ .

أغانٍ من الداخل

رجّعي ، يا رياح ،
نغمات الهنـاء ؛
وافتحي باب السماء
للعذارى المـلاح .

راحيل

متجهمة الوجه

مُنشداتٌ ! والناسُ في غمرة الـذلّ ، وسيف العُـداة في جلعاد؟! مُنشدات أم خالعـاتٌ على الابطال روحاً وثابـةً وجهـاداً؟!

اغانٍ من الداخل

رجّعي ، يا رياح ،
زمزمـات القنـا ،
واجتني طيب المنى
عن سيوفٍ صباح .

راحيل

فرحة

تَنَمّ ناصِعُ المُنى ، أحمر الإرعاد ، يَنشقّ في رحاب الفضاء ،

لو يحولُ انتفـاضةً في صُدورِ الناس ، أو وثبةً إلى العليا!

إلى الفتيات

يا عذارى جاهدْ ، غنّين بالسيف ، وهجنَ الربى ، وهجن الصخورا ، وأمتشقنَ الرجالَ من حلل الأطيافِ ، وابعثنهم لهيباً ونورا .

تدفق على الشفير بغنب

غنّ ، يا جبلي ،
بالأماني السماح ،
وامتشق منها الرماح
ليد البطل .

...

فارسٌ آمنا
ببلوغ الأمل ،
يرقئ أسى القلل ،
يرقص الزمنا .

...

قم بنا ، يا جبل ،
نلتقِ للشروق .
لك بالجوّ حقوق
مثلما للدول !

— ستار —

الفصل الثاني

الاسطورة

يا روعـةَ القدم المُطلّـهْ
خلل الترفُّع والمذلّـهْ ،
سيانِ أرقصتِ الزمـانَ
وشيَّـدت كفّاك جهلـهْ ؟
أنا دونَ هيكلكِ الرفيعِ
أبثّك الإجلال كلّه .
جرّحتِ آهـاتي ، وألقاهـا
على شفتيَّ نهلهْ ؟
ما شئتِ كوني ! فالألوهة
في وشاحـكِ مستظلّـهْ !

الفصل الثاني

المشهد الاول

راحيل ثم تامار

راحيل

ملعبَ النورِ ، ملعبَ العطر ، يا جلعاد ، أصبحتَ قدّةً من ظلام ؛
خضّب الاثمُ بالدماء حواشيك ؛ فبهج الصباح ، دونك ، دامٍ !
لم يجئْ بعدُ منبئٌ عن لظى الحرب ، وعن قِرن والدي في الطعانِ .
قيل : إن يدخلِ الوقيعةَ يفتاح يرتجِ جلعادَ في الميدان .
وإذا أُنكرُ انتصاراً على النذلِ ، فلا أُنكرُ الظروف المُجابا ،
رفض الحرب ، مثل جلعادَ ، بالامس ، فهل يَلتوي الذليلُ رغابا ؟

هي تامار ، خِدنتي ، تحمل الانباء بكرًا من النقات الناسِ ،
ذكرت حيرتي فجاءت ، ولا بدَّ ، إلى عزلتي بكل مؤاسِ .

تامار

بشرَنا ، أختِ ، بشرنا ! رَضيَ اليفتاح !

راحيل

جوزيتِ ألفَ بشرى لبشرى !

تامار

ومشى للقتال في سحر الأمس ، شجاعاً يجرّر المجد جرّا .
ما درينا إلّا ماء ، فقمنا بقرابينَ بكرٍ ، وصلاةٍ ؛
فانظريها ، جلعادَ ، قطعةَ نارٍ تتعالى لمبدع الكائناتِ :
الخنايا معابدٌ وصلاةٌ ، والأيادي كثارةٌ ودفوف ،
وانظري الجوَّ دفقةً من أغانٍ مسعُ الكون دونهنّ وهيفُ ؛
وانظري الحُلمَ . . .

راحيل

ايّ حُلمٍ تذكرتُ وجميعِ الألوانِ مِلءَ جفوني ؟ !
في منامي رأيت سيفَ دماء . . .

تامار

مقاطعةً

سيف يفتاح في بني عمون ؟
قاطربي .

راحيل

لا طربتُ ! حلمي مخيف يملأُ الصدرَ رعبُه والمآقي ،
فيه زهر البياض يرقص مغناجاً على حمرة الدم المُهراق :
كنتُ في الحلم طلقة الوجه والقلب ، كورقاء في الربى غناء ،
حدتني الزُهرُ العُلى ، حدتني المُنية البكرُ في هوى عذراء ،
حينَ نوديتُ من عل : أن دعي جلعادَ ، والنصرَ ، واقبعي في الظلام .
فعصيتُ النداء — عفوكَ ، ربي ! — وإذا قبلتي بريقُ حسام ،
وعصورٌ تدور حولي سراعاً ، ويشقّ الزمانُ عنها الستورا ،
فأرى عصفة الرياح صراخاً ، وسواقي « جلعاد » دمعاً غزيرا .

تامار

بخوف

ايّ حلمٍ ، راحيل !

راحيل

ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقّع خطبٍ ؛
وأُحسُّ الماء ملء جفوني ، وعلى بسمتي الجريح ، وقلبي !

تامار

حدّقي ، أختِ : في البعيد سيوفٌ لامعاتٌ بين الغبارِ ، وخيلُ .

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها

أترامى فرسانَ عمون في نصر ، مشى دونهم من السَبْيِ سيلُ ؟
ملأوا السهل والربى ، فعلى جلعاد ظِلٌّ من الدجى والفناء ،

لا رجالٌ تذود عن قدسنا ، والناس تمشي للحتف مَشيَ الشاء .
يكون التشاؤم قد بلغ منها حدًّا قصيًا
يا صباحَ الدمار ، ابن الدواهي الحمرُ تنقضّ من فجاج السماء !
أين من يعشق النجوم غضاباً ، ويكبّ النيران في الارجاء !
ينثر الموتُ في البرايا غبارًا ، ويردّ الجبال فوق الجبال ،
يبعث البيدَ والبحارَ دخاناً ، عاصفاتٍ رياحُهُ بالزوال ،
ويعيد الغمرَ القديمَ مُخيفاً ، والهيولى وزمزماتِ المنيه !
إن تُبدنا العُلى ، فلا اشرقت يوماً ، ولا رفرفت بتاج البريه !
الضحايا . . .

المشهد التالي

راحيل ، تامار ، المجنونة

المجنونة

عشرون الف أسير

راحيل

بحسرة

أتراها البشرى ؟ !

المجنونة

وألف قتيل

راحيل

بغضب

حبّذا لو قضوا جميعاً .

المجنونة

قضاء علويٌ !

راحيل

قضاء شعبٍ ذليل !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السنيّاتِ ، وعشرون وزنةً من نضارٍ .

راحيل

لا ذكرت الأموال !

المجنونة

لِمْ لا ؟

تامار

وبفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحمى ؟ وحامي الذمار؟!

المجنونة

بين لمع الحراب . . . بين الأسارى . . .

راحيل

مقاطعة

يا اذلَّ العبـــدان في عمونٍ !
قدتَ جلعادَ من مذلة هونٍ أبـــديٍّ إلى مذلّـــة هونٍ !
سرتَ . . .

المجنونة

راحيل ! . .

راحيل

سرتَ عبدًا ، وعبدًا عدتَ . . .

المجنونة

راحيل ! . .

راحيل

لو رجعت قتيلا !
عدت حيًّا تجرّ القيد . . .

المجنونة

خلّي القيد جنباً .

راحيل

يبقى الـذليلُ ذليلا !

المجنونة

ما تقولين ؟ ما تقولين ، راحيل ؟ ويفتاح قبلةُ الامصار ،
أشرق العزّ في الربوع ، وخلّاها انتصاراً يقوم إثر انتصار .

راحيل

ما تقولين ، يا عجوز ، انتصرنا ؟ نحنُ ؟!

المجنونة

نصراً غنت به البيداء!

وكأن الفرح قد زاد في خبلها

كنتُ في الحرب كلّ شيء ، وكان الدمُ مني يقضي بها ما يشاء .

تامار

لراحيل

مَن تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونة تهذي ؛ دعينا من ترّهات الجنون .

المجنونة

انا قدتُ الرجال . . وُلدي . . دمائي ؛ أنا أمُّ الوليّ ، والناسُ دوني .

راحيل

باشفاق

هاجتِ المرأة الشقيّة .

يسمع غناء من الداخل

تامار

خلّيها ، وقومي إلى لقاء الجموع :
العذارى في موكب يتغنّين بفارٍ يجتاحُ أم بشفيع !!

راحيل

بحسرة

جالَ في خاطري انتصارٌ ، فامسى هذياناً مرّاً على هذيانِ ؛
أملٌ أشرقت جوانبُه ، وانشقّ عند اقتباله عن هوانِ .

المجنونة

مسكة براحيل وقد ارشكت ان تخرج

أين تمضين ، يا ابنة الظافر الدامي ؟ ؟

راحيل

دعيني ، واخلي معالم داري .

المجنونة

تطردينني ؟ !

راحيل

باشفاق وندم

طردتُها ، وبصدري بعض ميلٍ لهـا ، وبعض وتارِ .

المشهد الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند الرسم في خلاله أغانٍ تجيء من بعيد. وفجأةً تلتفت المجنونة الى الداخل فرحةً ، وكأنّ الفارس قد خلت وطأته

قرب الظافرون من منشداتِ النصر ، يجري جامـادُ فيهم حبورا ،
مانح الاخضرار في الظفرِ الرحبِ ، تمرّى فيـه الجمال نضيرا .
خلعوا فوقـه البطولـة أبرادًا ، وشقوا الظبى عليه نجومـا ،
أيُّ قِرنٍ أمـامهم يعتـلي المهر المجلّي ، ويستطير الغيومـا .
فـارسٌ تـدّهُ المضاء من الشمّ الرواسي ، والشرّع الاسيافِ ،
قرّبي منـه ، قرّبي منه ، راحيلُ ، وبثّي لقياه طيبَ القوافي .

يسمع غناء فتاةٍ غريبة ، فتتقابل المجنونة وكأنّ الفارس قد عاودها

وأزيحي عن دَرْبه قينةً دكنـاء تشدوه نغمةً دكنـاء ،
الغنـاء الغنـاء عصفة إرعـادٍ ، وأشبـاحُ مأتم تتنـاءى ،
صرخاتٌ غريبـةٌ تمزق الصبح ، وجهش على الدنى ، واحتضارُ ،
أين راحيـل تملأ الأفق تحناناً ، فينفو على يديهـا النهارُ ؟
قـدمتها عـذراء قمرًا ، والقتها أمام القيان ، بين الدفوف .

يرتفع صوت راحيل ، فتعود المجنونة الى هذيانها

انشديه ، راحيل ، اشجى من الحبّ ، واسى من اصطكاك السيوفِ ،
وابعثي اللحن رافـلًا ، واملئيـه بخفيف الجوانح البيضـاء ،

في نفاثاتك الفتيّة شيء من خضاب الأسى ، ولون الماء .

بدهشة ، وقد عاودها المارض

ما دهى موكب العلى ؟ أجفل الفارسُ ، أم سادت الربى بالجوادِ ؟
أمر الناس بالرجوع ، وألوى كالفَ الوجه ، واهيَ الاجلادِ .
مستضامٌ ، ترجّل الآن ، وانهال على المنشدات يصرخ ذعرا .
هربت منه خاشعاتُ العذارى غير راحيل ، فهي تهتف بشرا .
وهو ساجٍ ، يُلوي عليها وتُلوي : دفقةٌ من سنًى على لبنان ،
أيّ سرٍّ في قلبه يترك الصبحَ مريضاً في غرة الاحزانِ ؟
فالبرايا مثلُ ازورارٍ عن الهديِ ، ومثلُ اختلاجةٍ وانقضاء ،
والهدوء الرحيبُ ، والقيظ والنارُ انهيارُ الفضاء فوق الفضاء .

بعد سكوت وتأمل

ما ترى الظافرِ المجلّب بالقوّة ، يبدو موشحاً بالذهول ،
يمسح الدمع خفيةً عن عيون الناس ، عن نفسه ، وعن راحيل !

سكوت طويل ، اغانٍ نهيمة تجيء من بعيد . تتعد المجنونة دون تعمد في ظل البحرة بحيث لا يراها الداخلان

المشهد الرابع

المجنونة ، يفتاح ، راحيل

راحيل

هاتِ ، يا والدي ، عن الحرب ، فالدمعُ بعينيك ريبةٌ في انتصارك ،
والتقاء الحان بالبسمة الحرّى دليلُ انتحابةٍ في قرارك ،
اتراها هزيمةً ؟!

يفتاح

لا ، وراحيل ، فيفتاح في انتصار فودِ :
سَفَحَ العزّ دوننا ، وكسانا بردَ مجدٍ رحبٍ على برد مجدِ ،
فجرُ نصرٍ يحيا على الاعصر الغرّ ، وتشدو جلاله البيداء ؛
عاد يفتاحُ بالغنائم والأسرى تضيق الربى بهم ، والفضاء .

ضرب الضربة السخيّة في عتون ، فانهدّ عزّها بحسامه ،
حصد الهام ، فالسهول تجلّلنَ بهامٍ وقفٍ على أقدامه .
لقي الجيشَ في « عروعير » صبحاً ، يتزل الرعبَ دفقُه ، والظلاما ،
تتزّى الهتات عن جانبيه ، فتخال التهديد منه حِماما ،
لا انتهاءَ له ، ولا وهَنٌ يضرب منه ، فتبدأ الهيجاء .
وتلوّت رجالُنا مضضَ الحيران لاقته فجأةً نجلاء ؛
لم يطقها يفتاحُ وقفةَ جبنٍ ؛ فعلا صوتُه يُصمّ الرياحا ،
أمر القوم بالهجوم ، وبالوت ، فادمى السنى ، وأدمى الصباحا ؛
كم نفوس تناثرت والعوالي ، وجسوم تعانقت والمواضي ،
خطبة السيف خطبة الحق ، والكاسي ثيابَ الدماء كاسي البياض .
صخب الحاملين ملء الصحاري ، ونزاع الفرسان ملء البرايا ،
والتلال الدكناء من جثث الابطال ، والافق من لهاث الضحايا .
يتهادى يفتاح في مطلع الجيش ، على عزّة الأبيّ الظافر ؛
قيل : مستقتلٌ ، وقيل : شجاعٌ عشقته ، فهادنته البواتر .
يتحاشى عن الجبان ، ويجري عارضاً صدره على المقدام ،
فاذا يلتقيه في فجأة الطالب ، يرمي بنفسه المحسام .
وتردّى النهار بالدم فانزاح ، وابدى الماء قبل الماء ؛
ورأى الناسُ عرهم مثقل الخطو ، كسولًا إلى لقاء القضاء ؛
فتنادى عصفُ المنية فيهم ، وتهادت منه الربى والسهول ،
فاذا فجعة الحراب نساء ، يتلوّى على العدى ، ويميلُ ؛
وإذا دفقةٌ من البدر تجلو اكمات الاحياء والاموات ،
عرف الناس أيّ شطرٍ اصابوا ، فاذا السيف في ظهور العداة .
ويرى الفتحُ من « عروعير » ، يبغي حدّ « متيتَ » و« القرى العشرينا »،
وعلى رقصة السنى والأغاني داس يفتاح في بني عمونا .

راحيل

يا نواجي العهد الجديد ، تغنّي ! واصغَ ، يا كون ، واطربي ، يا سماء !

وتهادي على بطولة قوم ، هم جبينٌ إلى العُلى وضّاء !
واملأي الارض باسم ربك مجدًا ، باسم جلعادَ ، باسم اسرائيلا ،
واقطفي الشهب والشموس ليفتاح ، وصوغي لشعره الاكليلا !

تلتفت الى الداخل كأنها تناجي يفتاح ، بينما يفتاح الى جنبها يكظم دموعه وآلامه

يا بريقَ الآمال ، يا جانيَ المجد ، رعاكَ الجلالُ من لبنانِ ،
واشرأبّت زرقُ النجوم تحيّيكَ بشتّى الأضواء والالوان .
يا صلاةَ الرجوع لله بعد الكفر ، بعد المحلولكات الخطوب ،
ذكرتك العذراء في صفوة البال ، وفي هجعةٍ بحضن الحبيب .
عفو اردانكَ النقيّة ، يا يفتاح ، عفو الرمال تحت خطاكا !
انا جدّفت ، من غروري ، على القدس ، غداةَ اقتربتُ من ذكراكا .

يفتاح

عدتِ ، راحيل ! للصواب ، والغيتِ بيفتاح زَيْنَ اسرائيلا !

راحيلَ

زينهم ؟ لا . فحبذا الظافر الأكبر في مثلِ والديكَ أصولا !

يفتاح

تظلمين اليفتاح ، راحيلُ .

راحيل

لم اظلم . وحقُّ تكبّري واعتزازي !

تشير الى أبيها ، وكأنها تذكّره بالكبر الذي رباها عليه

وابي بنتي النبيلةَ من تيه الرواسي ، ومن شموخ البازِ .
عشتُ في قربه ، يتيمةَ أمٍ ، فانا منه دنيواتُ الهناء ؛
لا اماني لهُ سواي ، ولا لهوَ ؛ يريني في الارض ظلَّ السماء .
كلُّ شيء حولي علاءٌ وكبرٌ ، كلُّ شيء مخضّبٌ بالكمال .
ما قرأتُ التاريخ إلّا جليلًا ، في فم يبعث الكلام لآلي ؛
أو رأيتُ الاعمال الّا كبارًا ، من يدٍ حصبة الندى والسماحِ ؛
وكتابي أبي ، أرى فيه من موسى ، كليم العُلى ، ومن يفتاح .

وإذا نلتقي على ذكر أمي ، ففضاه مغرورقٌ بالشعاع ،
او تغني بمكرُماتٍ جدودي ، فرباعٌ غراء إثرَ رباع .
خَلِّني ، خلِّني ، على ذكر يفتاح ، ارى فيك أطيب الناس ذكرا ؛
وإذا تشرف البلاد بيفتاح وجلعاد ، تلتقيك الأبرّا .
هاتِ خبّر عن روعة الحرب والنصرَ ، وعن بُدَّلٍ لديك أجادوا .

يفتاح

كلُّهم باسلٌ .

راحيل

رايَ الرجال النُّرَ جلّى ؟ يفتاحُ ام جلعادُ ؟

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

قلها بلا اتضاعٍ !

يفتاح

بعد تحيّر

كلانا .

راحيل

لا ! وانت المجرّر المجدَ أصلا ؛
إن يعادلك في الطعان ، ففي فرعك كبرٌ يُلقي على الشمس ظلّا .

يفتاح

ما تقولين ؟ بعد رفرفة النصر ، وبعد انتفاضة الرايات ،
بعد خوض الطعان مرتفعَ الرأس ، وخلع العُلى على الساحات ،
بعد نسج الشموس بردةَ مجدٍ ، لا ترين اليفتاح غير وضيع ؟!

راحيل

هو ما قلتَ ، يا أبي ،

يفتاح

وجلاء الفتح ، يا بنتِ ، عن غوالي الربوع ،

وانتشالُ الاطفال من غمرة الموت ، ومنعُ المخدّرات النساء ، وحماء الاطهار فينا العذارى من فجور الصُّابة الاعداء ، والفعالُ الغُرّ العُلى ، مَنْ اتاها غير يفتاحَ ؟

راحيل

انت ، والامجادُ .

يفتاح

ما انا والرجال الّا دمى خرسٌ ؛ ولولا يفتاحُ ، صمٌ جادُ . بثّ فينا العلى ، وقادَ الشتاتَ النذر منا ، مجرّحاً ، ملتاعا ، فاذا نحن نقتفي إثر يفتاحَ ، فنمشي الى الحِمامِ سراعا . نحن ، لولا يفتاح . . .

راحيل

لقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سَمحُ الطعانِ سَمحَ الاصل ؟ امتدحْ طعنةَ الموثّق ، يا جمادُ ، لا تمتدحْ ذراع الأذلّ .

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

حاربتَ جنبه ، فغزا قلبك بالوَفر من جيل الطعانِ ، فنسيتَ الاصل الذليل ؟ !

يفتاح

أناةً . . .

راحيل

مستطردة

واشتريتَ العُلى له بالسنانِ؟!

والدي ، يا سليلَ مجدٍ عريق ، لي رجاء ، على هواك ، وحيدُ : لا تجد في الفعالِ مغفرة الذلّ ، فلا يُشترى أبٌ وجدودُ . أنا أخشى مَغبّةَ وَفرة الشرّ ، إذا يسحي الحنى في الوليدِ ؛

يطهر المرء ، وهو يرعى رؤى اللعن بثغر الحفيد قبل الحفيد .
لا أطيق امتداح يفتاح من فيك ، فدعني أمضي .

تخرج

المشهد الخامس

يفتاح ، المجنونة

يفتاح

حنانك ! ربّي ،
أيّ كاس تذيقني ، في انتصاري ، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟!
انا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمر من الأسى والعذاب ،
واعتزلت الدنيا اغتفارًا ، وضحّيتُ هنائي ، تقرّبًا ، وشبابي !
ونذرت الثمين والسمحَ قربان ظهوري على العداة ، وثاري ،
وتماديت انذر الفادة العذراء أولى المقتنيات انتصاري ،
وإذا التقي جوع العذارى ، تتراءى راحيلُ نصبَ جفوني ؛
وأشيح الانظار عنها فالقى ، ما تلفّتُ ، وجهها يلتقيني ؛
وسأقضي ، يا ربِّ ، بعدُ على بنتي ، فيا ربِّ ، هل كفتك المنيه؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والتفت يفتاح وجهًا لوجه

ايه ! يفتاح ، ما يجول بعينيك ؟

يفتاح

حائرًا

دعيني ، نذرت بنتي ضحيّه !

المشهد السادس

المجنونة ، ثم راحيل

المجنونة

أيّ نذرٍ ! يفتاح ، لا شرعة الله رأته ، ولا كرور السنين !
انا مجنونةٌ ، وأنت على رشدٍ ! فخذ من فمي رشاد الجنون .

تدخل راحيل فترتمي المجنونة دونها ضارعة

أهجري، بنتِ، مضرب الظافر الدامي ، وخلّي مطارف الارجوانِ ،
وتعالَي الى حيـاةِ البراري ، فهي أبهى من بهجة الصولجانِ .

راحيل

متذكرة العلم

صوتُ حلمي !

المجنونة

تمهّلي ، فهناء العمر مرمى فراشةٍ من سراجِ !

راحيل

تعود الى نفسها وكأنما تعزا من المجنونة

أهجرُ البيتِ مثل مجنونة ؟

المجنونة

لا ، مثل من يتّقي جنون التاج !

أنسرعي ، بنتِ .

راحيل

في حنانكِ شيء من أبي في تعطّفٍ وتحنّ .

المجنونة

في تحنّيهِ ؟ في تعطّفهِ ؟ لا .

راحيل

بعجب

أنتِ تأبينَ ؟

المجنونة

بحسرة واعتزاز

كلُّ ما فيه منّي .

راحيل

بقلق

من تكونين ؟ يا عجوز ،

المجنونة

دعيني ؛ واهربي قبلما يفوت الاوانُ .

راحيل

وقد تزايد قلقها :

أنبئيني مَن انت أيتها .

المجنونة

خليني وشأني ؛ فكل ما بي هوانُ !

راحيل

تهزها فائدة الصبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني فـازيدَ الضنى بقلبٍ حزينٍ ، أهربي .

راحيل

ان كشفتِ سرَّكِ .

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأبين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني .

ترى يفتاح مقبلا

قرب السيفُ ، فاتقي السيفَ ، راحيل !

راحيل

بحيرة

الي !

المشهد السابع .

المجنونة ، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى ابنته معها

مَن أرى ؟ خيالك ، بنتي .

المجنونة

وقد حولت تضرعاتها الى يفتاح بعد أن خرجت راحيل

رحمةً بالجمال ، بالرونق الضاحي ، بزهر بكر الجمال ونبتِ !

رحمةً بالشباب ! . . .

يفتاح

من قال ؟ ! . . .

المجنونة

يفتاح . . .

يفتاح

إلهي ! أتسمع أسمي داري؟!

إخفضي الصوتَ .

المجنونة

عفوَ نصرِكَ يفتا . . .

يفتاح

اخفضي الصوت عن نسيم سارٍ .

كلُّ شيء في بيت راحيل كبرٌ ، في ثراها ، في المنحنى ، في التلول ،

إخفضي الصوت يجفل المضرب الذاكي براحيل ، أو هوى راحيل .

المشهد الثامن

يفتاح ، المجنونة ، راحيل

راحيل

يكون قد تقدمها جلبة من الداخل

والدي ، والدي ، أناتك بالنذر ، ورحماك بالعذارى الحسان !

يفتاح

سمعتنا ؟ !

راحيل

رحماك ، جلعادُ .

يفتاح

وحده

جلعاد ؟

لراحيل

اطلبي ، إن اردته ، صولجاني .

راحيل

صولجان ؟ ! أبي ، بجلمادَ ابكارٌ حسانٌ نذرت منهنّ بكرا ،
فاعفُ عنها .

بنتاح

ربّي !

راحيل

وابكار جلعاد مروج الربيع نورًا وزهرا ،
فتصوّر منهنّ مفتاحَ خصرٍ تتلوّى على لظى النيران ،
يلفح الوهجُ جبهةً من محيّاها ، وثغرًا لم تلقهُ شفتانِ ؛
ويحرّ اللهيبُ زرقةَ عينيها ، فتُغضي عن عالَمٍ في انهيار ؛
ويغيم الحدّان عن سحر رحب تراءى عرض اللظى والشرار ؛
ويهيج الصدرُ المهدَّمُ أشلاءَ الاماني ملويّةَ الاعناقِ ،
مثلُ دنيا تموت ، مثلُ خيالٍ يتمحي عن معالم الاحداقِ ؛
فالعصور الطهورُ يركضنَ إعراضاً عن الكون ضاق بالاثم صدرا ،
ويغيضُ الضياءُ عمدًا ، ويَبكي الزهرُ . . .

بنتاح

بنفاد صبر ، وقد تصوّر بنته لنفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه هي دون ان تعلم

راحيل ، يا ربيعي الأغرّا ،
يا نشيدَ الاضواء ، يا زُرقةَ الحُلم ، فداكِ السنى بسيف أبيك ،
وفداكِ النصرُ المهلّل في الدنيا ، ورجعُ الصلاةِ والتبريك ؛
انتِ نذري !

المجنونة

بفتاح !

بنتاح

أمي !

راحيل

باستفهام ، فحسرة ، بعد ان تنقل طرفها من بنتاح الى المجنونة فتفهم كل شيء

ترى ؟ ! . . .

المجنونة

يفتاح ، ردَّ الظلامَ فوق الظلام ،
واطوِ من نصرك البرود السنيّات ، وزفَّ الدنيا سيوفاً دوامي ،
واملأ الارض والمعالم شرًّا ، وابعث الريح بين جهش وجرح ،
وتحدَّ العُلى ، ولا تقبس الكفَّ وتنهدَّ في دم منك سمح !

تمضي مولولة

راحيل

والدي ، ما شجا فؤادي ، قربَ الموت ، غيرُ النداء : « يا يفتاحُ »
يا منايَ البيضاء ، كيف تموتين ، ويبقى هوى ويبقى صباح؟!
اعشقتِ الحريق ، والكون صحوٌ علويٌّ ، والريحُ طيبٌ خفوقُ ،
أم تحبين نثر عقدك في النور ، فيبكي على هواكِ الشروق ،
فاذا في الاثير ، منكِ جنازاتٌ ، وفيه تفجّعٌ وجراحُ !

اغانٍ من الداخل بيدة : رجّعي ، يا رياح ،
نغماتِ الهناء ،
وافتحي باب السماء
للعذارى الملاح !

راحيل

العذارى يُنشدن ، والأكم الخضراء تزهو بهنَّ ، والأدواحُ ،
والأماني زرقٌ على قبب « الكرمل » ، والكون هازج بالعذارى ،
وانا انظر الحياة سوادًا ، وجلالَ الحياةِ دمعاً وعارا !
والدي ، والتذي ، جنانك شهرين أناجي ، مداهما ، آمالي . . . .

يفتاح

لكِ ما شئتِ !

راحيل

مستطردة

واقطفُ عمري زهراتٍ بيضٍ كوجهِ خيالي !

— ستار —

زحله ، ٩ حزيران ١٩٣٣ — ٤ ايار ١٩٣٤ — ١٥ ك ١ ١٩٣٤